عمر بن عبد العزيز

الخليفة الصوفى

للأستاذ محمود شلبى

- ٦ -

الخاتمة

وقام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من نومه ذات ليلة ، وقص على زوجه رؤياه التى رأى .

قال عمر : رأيت كأنى دفعت الى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر ، واذا فيها قصر كأنه الفضة ، فخرج منه خارج فنادى : أين محمد ابن عبد الله ، أين رسول الله ؟ اذ أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنادى : أين أبو بكر الصديق ؟ ، فأقبل فدخل . ثم خرج آخر فنادى : أين عمر بن الخطاب ؟ ، فأقبل فدخل . ثم خرج آخر فنادى : أين عثمان بن عفان ؟ ، فأقبل فدخل . ثم خرج آخر فنادى : أين على بن أبى طالب ؟ ، فأقبل فدخل . ثم خرج آخر فنادى : أين عمر بن عبد العزيز ؟ ، فقمت فدخلت فجلست الى جانب أبى عمر بن الخطاب ، وهو عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر عن يمينه ، وبينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ، فقلت لأبى : من هذا ؟ . قال : هذا عيسى بن مريم . ثم سمعت هاتفا يهتف ، بينى وبينه نور لا أراه ، وهو يقول : يا عمر بن عبد العزيز ، تمسك بما أنت عليه ، واثبت على ما أنت عليه . ثم كأنه أذن لى فى الخروج فخرجت ، فالتفت فاذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر وهو يقول : الحمد لله الذى نصرنى ربى . واذا على فى اثره وهو يقول : الحمد لله الذى غفر لى ربى .

وبعد أن قص أمير المؤمنين عليها ما رأى ، بشرته خيرا كثيرا فى آخرته .

وعندى أن تلك الرؤيا رؤيا حق ، بل هى تتلألأ نورا وتبدو كفلق الصبح .

ولقد أجمع الفقهاء والعلماء والعباد ، على أنه رضى الله عنه هو الخليفة الخامس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

***

ووقفت ذات يوم احدى الجوارى تروح عليه من شدة الحر فنامت وهى تروحه .

فما كان منه رضى الله عنه الا أن قام وجعل يروحها كما كانت تروحه وهو يقول : أصابك من الحر ما أصابنى !

***

ومن روائعه رضى الله عنه أن جاءته امرأته تخبره بموت ابنهما عبد الملك ، وكان ابن تسع عشرة سنة ، فما زاد على أن قال : أمر رضيه الله فلا أكرهه !

قولة عميقة عمق نفس عمر بن عبد العزيز ، لا ينطق بها الا من كان على مثل تقواه وهداه .

***

واستفاض فى أنحاء العالم عدل عمر ، وتناقلت الأفواه فى العالم سيرته العاطرة الزاهرة ، فأقبل الناس يدخلون فى الاسلام أفواجا .

وكان ممن أسلم طائعا مختارا ، كثير من ملوك الهند والسند ، وتسموا بأسماء العرب .

وبعث أحدهم اليه خطابا جاء فيه : « من ملك الهند والسند ، ملك الأملاك ، الذى هو ابن ألف ملك ، وتحته ابنة ألف ملك ، والذى فى مملكته نهران ينبتان العود والكافور التى يوجد ريحها من اثنى عشر فرسخا ، والذى فى مربطه ألف فيل ، وتحت يده ألف ملك ، الى ملك العرب . أما بعد ، فان الله قد هدانى الى الاسلام ، فابعث الى رجلا يعلمنى الاسلام والقرآن وشرائع الاسلام ، وقد أهديت لك هدية من المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها ، فانما أنا أخوك فى الاسلام ، والسلام » .

فسر أمير المؤمنين سرورا بالغا عندما قرىء عليه الخطاب ، وأمر بارسال الفقهاء والعلماء اليه .

وكيف لا يدخل الملوك وتدخل الشعوب الاسلام عن طواعية واختيار وقد سمعوا عن عدله فى سائر الناس ؟

كيف لايكون عمر بن عبد العزيز سببا فى اسلام الملايين وقد كان يخدم نفسه بنفسه ، ويكنس بيته بيديه ؟

وكان قبل الخلافة يلبس القميص الغليظ المرقوع . كيف لا وقد أهديت اليه تفاحة من رجل يحبه فى الله فشمها ثم ردها اليه فقيل له فى ذلك أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية فقال : أن الهدية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فأما نحن فهى لنا رشوة !

***

وفى سنة احدى ومائة مرض أمير المؤمنين مرضا شديدا فبعث يوصى عماله : « أما بعد .. ان الذى ولانى الله من ذلك وقدر لى ليس على بهين ، ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج ، أو اعتقال أموال ، لكان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه ، وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ، ومسألة غليظة ، الا ما عفا الله ورحم .. »

***

وبعث اليه أحد أصحابه وردة من بساتين دمشق ، يشمها فى مرضه ، علها تروح عنه شيئا مما به ، فجعل يسد منخريه ، وهو يقول : لا حول ولا قوة الا بالله ، ثم يأمرهم أن يبتعدوا بها ، فقيل له فى ذلك فقال : وهل يستفاد من الورد الا برائحته ؟ !

***

وحدثوه فى أمر التداوى من مرضه ، وأن ينظروا له طبيبا فقال : لو كان دوائى فى مسح أذنى ما مسحتها ، نعم المذهوب اليه ربى !!

لقد كان الرجل يتعجل الذهاب الى الله .. هناك حيث يلتقى بالأحبة .. محمدا وصحبه .

***

وفى رجب من نفس العام بعد أن اشتكى عشرين يوما ـ اشتد قلقه ليلة ، فسهر أهله معه . فجعلت فاطمة تبكيه هى والجوارى .

فقال عمر : من بكى فليبك على نفسه ، ميت يشيع ميتا !

فلما اقترب الفجر من تلك الليلة قالت فاطمة للغلام : امكث معه يامرثد ، ان أراد شيئا تكن قريبا منه ، أما نحن فسوف نذهب نغفو قليلا فى الطابق الأسفل .

فلما كان من الفجر ، صحا عمر صحوة فقال لمرثد : أخرج .. أخرج ودعنى وحدى .

فقال مرثد : لا أستطيع أن أدعك وحدك الآن .

فقال عمر : أخرج .. انى أرى شيئا ما هو بانس ولا جن .

فخرج مرثد مسرعا .

أما عمر فجعل يردد : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين .

ثم دخلت عليه فاطمة بنت عبد الملك ، فوجدته ، قد وجه نفسه للقبلة وهو ميت !

ذلك شيء من سيرة عمر بن عبد العزيز ، الرجل الذى كان يحكم نصف العالم على خوف من الله ، وأساس من تقوى الله .

الرجل الذى كان دستوره الذى يأخذ نفسه به ، ويأخذ الناس عليه ، الآية التى اختارها لتكون على المنابر يوم الجمعة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

وما كان اختياره رضى الله عنه لهذه الآية ، وأمره أن تحل محل لعن الامام على رضى الله عنه فى خطب الجمعة ، الا لأنه كان يتمثلها ويحبها ويطبقها .

لقد كان مثالا عمليا لتلك الآية .

فكان يعدل لأن الله يأمر بالعدل .

وكان فى مقام الاحسان لأن الله يأمر بالاحسان . وكان ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى لأن الله ينهى عن كل ذلك .

وما زال رضى الله عنه يترقى بالأمة فى هذا السبيل حتى كان الرجل فى عهده يلقى الرجل فيسأله كم ورده الليلة وكم قام من الليل .

***

وهكذا سعدت به الأرض حينا من الدهر .

ثم انتقل سريعا الى السماء ليسعد به أهل السماء كما سعد به أهل الأرض .

سلام على عمر بن عبد العزيز ، سلام على عباده الذين اصطفى .

محمود شلبى

* * *